محيط من الطين

عن جريدة الـ (موند Le Monde) الفرنسية

هذا المقال نشرته جريدة الـ (موند) الفرنسية لمبعوثها الخاص في عددها الصادر يوم الأربعاء ٢١ آب/أغسطس ١٩٧٤م . وقد رأت (الرائد) ترجمته ونشر معظم ما جاء فيه رغم مرور بعض الوقت عليه ، لأن الكارثة ما تزال آثارها قائمة ، ولأن الواجب الإسلاميّ يملي علينا أن نطلع المسلمين حكاماً ومحكومين على ما يعانيه إخوانهم ويواجهونه من أخطار . وكم كنا نحب لو أن مؤسساتنا الصحفية الكبرى كانت هي المبادرة لإطلاع الرأي العام الإسلاميّ على كارثة البنغال ، وكم كنا نحب لو أن حكامنا قد اهتموا الاهتمام الواجب بهذا الأمر استقصاءً للمعلومات ومساعدة بكل الوسائل الممكنة وهذا ما لم يحصل –حسب علمنا– على المستوى المناسب .

وقد قرأنا في بعض الصحف الصادرة (يوم الأربعاء ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩٧٤م) تصريحاً للسيد مجيب الــرحمن رئيس وزراء بنغلادش قبل سفره إلى نيويورك حيث سيطلب إلى الهيئة العامة للأمم المتحدة بــشكل خــاص زيــادة المساعدة الخارجية لبلاده .

وقد قال مجيب الرحمن للصحفيين في هذا التصريح : (إنّ الحالة في بنغلادش هي حالياً على شفا المجاعة . كما قال وزير التغذية : إنّ احتياطي حكومة داكا سينفذ من الآن إلى نهاية الشهر (أي شهر أيلول/سبتمبر) ما لم تصل الأطعمة بسرعة من الخارج بواسطة السفن .

○ ○ ○

منذ يوم الأحد ١٨ آب/أغسطس تتساقط أمطار غزيرة من جديد على (داكا) والجزء الأعظم من بنغلادش بعــد فترة توقف تستمر إلاّ بضعة أيام .

في ليلة الإثنين غرقت عدة أحياء من العاصمة ولقي ١٨ شخصاً مصرعهم كما غدا الموقف خطيراً جداً في مناطق (فريدبور) و(كوميلا) . وعلاوة على هذه السيول فإن الأخطار الأشد ضرراً تهدد أهالي بنغلادش نتيجــة المجاعــات والأوبئة في المناطق المنكوبة .

إنّ هذا ليس إلاّ بدء الكارثة في هذا البلد الغريق المرتبك غير المنظم الذي أصبح ثلثاه محيطاً من الوحل .

إنّ التقدير الأولي يوضح من فداحة هذه الكارثة أكثر مما كان يبدو لأول وهلة ..

إنّ ٣٥ مليون شخص -أي نصف السكان تقريباً- قد أصيبوا مباشرة .. ومنهم نحو ١٥ مليوناً فقدوا كل شيء وأصبح مصيرهم مرتبطاً بالمساعدات الخارجية .

٤٠٠ ألف منـــزل على الأقل تهدمت حيث أقيم على عجل ٢٠ ألف معسكر لإيواء مليون من المنكـــوبين . في مدينة (داكا) وحدها تبين يوم الأحد ١٨ آب/أغسطس أن ٣٥ ألف مسكن ومائة كيلو متر من الطرق قد أصـــيبت بأضرار كبيرة .. وفي داكا أيضاً يستقبل ١٣٠ معسكراً ٨٥ ألف شخص قدم معظمهم مـــن ضـــواحي العاصـــمة وأحيائها الأشد فقرا . ويتوافد المهاجرون والعائلات الجائعة إلى مراكز الإنقاذ حيث تـــسوء الأحـــوال الـــصحية - باعتراف المسؤولين- من يوم إلى آخر . إنّ الأرقام الرسمية للخـــسائر لا تمثـــل الواقـــع ، وهـــي إلى الآن ١,٣٩٥ شخصاً[1] و٣٥ ألف رأس ماشية ، فقادة طائرات الهليوكوبتر المكلفة بعمليات الإنقاذ يصرحون بأنهم حلّقـــوا مـــثلاً فوق مناطق مغطاة بكاملها بالمياه ولا أثر للحياة فيها ، وهم يقولون : (عندما تتراجع المياه كلية سوف نجد قَطْعاً جثثاً أخرى) . علاوة على ذلك فإن المجاعات والأوبئة هي التي تهدد بنغلادش .

وعن مصادر رسمية تقدّر محاصيل الأرز التي تلفت بـ ١,٣٠٠,٠٠٠ طن هذا علاوة على ١,٧٠٠,٠٠٠ طـــن من العجز الزراعي المتوقع لعام ٧٤-٧٥م قبل بدء الفيضانات . وبالإجمال فإن بنغلادش ينقصها ما يساوي ٤ شهور من استهلاكها لكي تتماسك من جديد .

ويقول وزير الزراعة إنّ بلده يحتاج في الحال إلى ٣١٧ مليون دولار وإلى ٧٥٠ ألف طن من البقول على الأقل ، وصل منها ٩٠ ألف طن فقط إلى ميناء شيتاجونج وذلك من كندا .

ومن جهة أخرى فإنه إذا كان حقيقة أن عدة بلاد قد عرضت مساعدات استثنائية على بنغلادش[2] فـــإن هـــذه المساعدات المعروضة تبدو ضئيلة أمام مدى الاحتياج . ولقد كتب محرر جريدة (الـــشعب The People) اليوميـــة البنغالية بشيء من المرارة يقول : (إنّ تباطؤ العالم الخارجي في إعانة بنغلادش يزيد في قلقنا) .

إنّ حكومة مجيب الرحمن وهي أمام كارثة تفوق إمكانيات بلادها ومواردها المحدودة تحاول مجابهة المشاكل الملحة أولاً وتناشد الأهالي الجمود والتحمل والصلاة . وحالة الفيضان توجب إيصال أكبر كمية ممكنة من المواد التموينيـــة إلى المناطق المنكوبة لمواجهة المجاعات بأسرع ما يمكن ولكن للأسف فإن شرايين المواصلات التي كان أصلاً معقدة في بلد تقطعه مئات الروافد لأنهار (الجانج) و(البراهمابوت) أصبحت اليوم منهارة تقريباً في عدة مناطق . لقـــد تهـــدمت الجسور (ضمنها جسر رئيسي ، هاجي جال) بالقرب من (كوميلا) ذلك علماً بأن الكباري التي دمرت في حرب عام ١٩٧١م لم يعد بناؤها إلى الآن . وقد قُطع أحد الخطوط الحديدية وهو الذي يربط مدينة (شاندبور) بـ (لا زكام) ، كما أن خط (فريدبور) مهدد بالانهيار حيث أن عمليات سد الفجوات قد أوقفت يوم السبت نتيجة لعنف الأمطار . إنّ الخطر الثاني بالطبع هو الأوبئة وذلك في المعسكرات المزدحمة علاوة على القرى المنهارة التي تحـــيط بهـــا جثـــث

الحيوانات المتعفنة وانقطعت عنها المياه النقية . إنّ حالات الكوليرا تزداد يوماً بعد يوم فعلى سبيل المثـــال تـــوفي في (كوكس بازار) ٢٧٢ شخصاً بالكوليرا ، وهذه المنطقة وحدها تحتاج إلى مليون عبوة من الأمصال و لم يصل إليها إلاّ الربع تقريبا .

ورغم الجهود المبذولة من عدة فرق طبية في (داكا) فلم يتم إلى يوم الخميس الماضي سوى تطعيم .. ٣٠,٠٠٠ شخص .

وإلى جانب هذه الأخطار المباشرة توجد أخطار أخرى مترتبة على انهيار الحالة الاقتصادية المتدهورة منـــذ عـــام تقريبا . لقد أغلقت عدة مصانع أبوابها نتيجة لنقص الطاقة والمواد الأولية أو لأنها تحطمت ، وأضافت إلى العـــاطلين أعداداً أخرى في وقت لعب فيه نقص المواد الغذائية دوراً هاماً في ارتفاع الأسعار .

ولقد تزايد في القرى عدد الفلاحين المعدمين ممّا يشكل خطراً كبيراً على التوازن الاجتماعي كما يقـــول وزيـــر الزراعة . وحتى بعد انحسار المياه لن يكون من الميسور اقتطاع جزء من مخزون الحبوب لاستعماله في إعادة الـــدورة الزراعية . وفي الواقع تظهر من وراء الكارثة الطبيعية البوادر الأولى لأزمة اجتماعية وسياسية قد تتفاقم سريعاً ، ونشير بهذا إلى (فئة الفاسدين الذين لهم ضلع في أسباب الانهيار ومع ذلك فهم يتوارون في ظلال أنانياتهم) .. هذه الطبقة – كما تقول صحيفة (بنغلادش أوبزرفر)– أصبحت تملك الملايين وتجني بذلك ثمار الاستقلال الوطني .

ومن الواضح أن مواطني بنغلادش لا يتجاوبون مع نداءات التضامن الوطني الموجهة يومياً من السلطات ، وقـــد تفاقمت السوق السوداء في المدن . وأجبرت عمليات التهريب على الحدود الهندية الحكومة على إرسال قوات إليهـــا (تم في أسبوع واحد القبض على ١٢٨ مهربا) . ولقد دفع الجوع والعراء في معسكرات اللاجئين عدداً من النـــساء للدعارة وذلك لمصلحة الانتهازيين .

ورغم تحفظ السلطات تتزايد الشائعات حول حدوث صدامات سياسية في القرى ، فقد قتل على ســـبيل المثـــال اثنان من المتطرفين يوم السبت في (باوميت بور) في اشتباك مع قوات الأمن ، كما تمّ القبض علـــى ١٦٦ شخـــصاً يدّعون أنهم (ثوار ماويون) وبذلك ازداد عدد المعتقلين السياسيين .

صدمة وطنية

ما الذي سيحدث لبنغلادش وهي تحت صدمة الكارثة ، في وقت تتخبط خلاله في ضياع اقتـــصادي ؟! مـــاذا سيحدث لـ (البانغا باندو) (صديق البنغال) مجيب الرحمن ، الذي يستند سلطانه إلى شعبيته القائمة علـــى الرومانـــسية البنغالية أكثر من استنادها إلى اختيار سياسي ؟

هذه الكارثة المرسلة من السماء ، أو كما يتردد في داكا : (لقد أعلنت الطبيعة الحرب على بنغلادش) .. هل من الممكن لهذه الكارثة أن تحدث ردود فعل وطنية تؤدي إلى تجمع الشعب وراء قائده ؟

هل ستكفي هذه الكارثة للقضاء على التفتت السياسي الذي تفاقم ؟! .. هذا ما يؤمل من (داكا) حيث تعود إلى الأذهان ذكرى الأيام الصعبة لحرب الاستقلال في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧١م .

هل تفلح هذه الكارثة في إيقاظ الضمير العالمي الذي أصمّ أذنيه إلى أمس القريب عن نداءات الاستغاثة الــصادرة عن بنغلادش طلباً للمعونة الأجنبية المادية والمعنوية التي يحتاج إليها ٧٥ مليون نسمة في هذا البلد الصامد المنكوب ؟

ويبقى السؤال الحائر على الشفاه .. ألا يمكن أن تكون لهذه الكارثة نتائج عكسية ؟ .. إنها قابلة لوضع حد للثقة التي كان يتمتع بها مجيب الرحمن بعد أسطورة عام ١٩٧١م .. وقذف البلاد في بؤس لا يحتمل ، وإبراز التناقــضات والتضارب في النظام القائم .

لقد وصل (البانغا باندو) إلى الحكم عن طريق حلم ذهبي وهو تجسيد أسطورة بطولية .. فهل يــستطيع (البانغــا باندو) –وهو بورجوازي عتيد– أن يقاوم العدو الخطير الجديد الذي لا صلة له بـ (الجلاء الباكستاني) ، بل يتمثــل في الجوع والفاقة وفقدان معالم العدالة ؟

---

(١) ذكر وزير الزراعة البنغالي في ٢٠ رمضان ١٣٩٤هـ – ٠٦ تشرين أول/اكتوبر ١٩٧٤م أن عدد الــضحايا ارتفــع إلى ٥ آلاف شخص وأن 2,3 مليون نسمة يتهددهم الموت جوعا .

– أسرة الرائد –

(٢) خاصة الولايات المتحدة الأمريكية التي عرضت ٤ ملايين دولار وألمانيا الاتحادية التي وعدت بـ ٦ ملايين دولار .